

الطبيعة الإشكالية لمفهوم الجوهر في فلسفة ديكارت

The problematic nature of the substance in Descartes' philosophy

طحطاح مبروك^{1*}tahtahmab@gmail.com جامعة زيان عاشور الجلفة (الجزائر)

تاريخ الاستلام : 06 أكتوبر 2025 ؛ تاريخ القبول : 01 ديسمبر 2025 ؛ تاريخ النشر : 25 ديسمبر 2025

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى دراسة مفهوم الجوهر، كما ورد في مختلف كتابات ديكارت، و النظر إليه من خلال اعتباره مفهوماً إشكالياً، لم ينته إلى حل نهائي و حاسم، يعرف ديكارت الجوهر تعريفاً لا ينطبق إلا على الله، باعتباره الوجود الوحيد المستقل بذاته، و مع ذلك يعترف بوجود جواهر مخلوقة، هي النفس كجوهر مفكر، و الجسم كجوهر ممتد، و هذا ما يعرف في تاريخ الفلسفة بالثنائية الديكارتية، و في تحليله للعلاقة بين هذين الجوهرين يؤكد ديكارت بالفصل و التمايز بينهما، و مع ذلك يقول بالتفاعل و الوحدة بينهما في الوقت ذاته، مما يولد توتراً جوهرياً بين الانفصال و الوحدة. و يشكل هذا التوتر ما نسميه في هذا المقال بالوجه الإشكالي في تصور ديكارت للجوهر ، و تتمثل الأهمية الفلسفية لهذه المسألة في تأثيرها العميق على فلاسفة العصر الحديث، ونخص بالذكر اسبينوزا و ليبنتز.

الكلمات المفتاحية: جوهر؛ ثنائية ديكارتية؛ جوهر مفكر؛ جوهر ممتد؛ جواهر مخلوقة؛ ديكارت

Abstract:

This article aims to examine the concept of substance, as articulated in the various writings of Rene Descartes, treating it as a problematic notion which resists any definitive or final resolution, Descartes defines substance in way that applies exclusively to God, who alone exists independently. Nevertheless, he admits the existence of created substances, namely the mind as a thinking substance, and the body as an extended one, this distinction has come to be known in the history of philosophy as Cartesian dualism, . In his analysis of the relationship between these two substance, Descartes simultaneously affirms their interaction and distinction; thereby introducing an inherent tension between separation and unity. This tension constitutes what we refer to in this article as the problematic aspect of Descartes' conception of substance. The philosophical implication of this issue are significant, exerting a profound influence on subsequent modern philosophers, particularly Spinoza and Leibniz.

Keywords: Substance; Cartesian dualism ; corporeal substance ; thinking substance ; created substances ; Descartes.

* Corresponding author, e-mail: tahtahmab@gmail.com .

- مقدمة

. يعود مفهوم الجوهر في تأسيسه للفيلسوف أرسطو، إذ يعدّ أحد المفاهيم المركزية التي ظلت مطروحة للنقاش وستظل دوماً كذلك، وهو محور الميتافيزيقا كما ورد في كتاب ما وراء الطبيعة، لم تتخلص فلسفة القرون الوسطى الدينية سواء اليهودية، أو المسيحية، أو الإسلامية من هذا المفهوم، بل تمحور النقاش كلّ حول الجوهر الإلهي، في مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة، وفي إثبات وجود الله، أمّا في العصر الحديث، وعلى وجه الخصوص في القرن السابع عشر، أو ما يسمّى بعصر العقل، تبلغ مناقشات الفكرة أوجها، فالأنساق الفلسفية الكبرى التي شيدت ما يعرف بالعقلانية، لا تُفهم إلاّ من خلال فكرة الجوهر، وموقفهم من المشكلات التي أثارها النقاش من مسألة الجوهر، وذلك من خلال تناول هذا المفهوم في كتابات ديكارت المتنوعة، ووفق رأي الفيلسوف الألماني لايبنتز، فإنّ فشل فهم طبيعة الجوهر قد كان سبباً في الصعوبات التي وقع فيها ديكارت، كما كان سبباً في تناقضات اسبينوزا^(Woolhouse, 1993, p.4). إنّ هذه الصعوبات التي برزت في مناقشة ديكارت لمفهوم الجوهر، تبدأ أساساً من تعريفه للجوهر، ذلك التعريف القائم على مسألة الاعتماد، يستثني جميع الموجودات الأخرى عدا الله، الكائن الوحيد القائم بذاته، ولا يحتاج في وجوده إلى غيره، لكن نجد اقراراً من ديكارت بجواهر أخرى، هي على وجه التحديد، النفس والجسم، كجوهرين من طبيعتين مختلفتين، أحدهما خاصيته التفكير، والآخر خاصيته الامتداد، ومع ذلك تكمن علاقة تفاعلية بينها، وهنا تتجلى لنا إشكالية الطرح الديكارتي للمفهوم، والذي يمكن أن نطرحه كالآتي: وفق أي مفهوم يقبل ديكارت القول بجواهر مخلوقة إلى جانب الجوهر الإلهي؟ وكيف نفسر الفصل والتمايز بين الجوهرين والوحدة بينهما في الوقت ذاته؟

لمناقشة هذه الإشكالية لا بد أن نتتبع مناقشات ديكارت المختلفة لمفهوم الجوهر، سواء في كتاباته الرئيسية، أو في مراسلاته المختلفة مع كبار مفكري عصره، وردوده على اعتراضاتهم، كما يجب أن نركز على تصنيفه للجوهر، بغية تفكيك عناصر هذه الإشكالية.

ولد "رونيه ديكارت" (René Descartes) [1596-1650] في فرنسا في 31 مارس 1596، في سن العاشرة من عمره التحق بمدرسة "لافلاش"، التي يقول عنها في كتابه "مقال عن المنهج": "على أنّي كنت في مدرسة من أشهر مدارس أوروبا" (ديكارت رنيه، 2000، ص 74) وقد بقي فيها ثمانية أو تسع سنوات، خمس سنوات الأولى لتعلم النحو اللاتيني والفرنسي، وسنة أخرى لدراسة البلاغة عن كتاب رومانين ويونانيين، وثلاث سنوات الأخيرة لدراسة الفلسفة، والرياضيات، والميتافيزيقا. يعتبر أبا الفلسفة الحديثة، لأنه كان المسئول - حسب النقاد - عن شكل وأسلوب، ومن ثمّ محتوى الفلسفة الحديثة أولاً في فرنسا، ثم في إنجلترا، رغم أنّ سابقين عنه، كان لهم تأثير في الفلسفة الحديثة ك"توماس هوبز" (Thomas Hobbes) [1588-1679] الإنجليزي مثلاً. ويرجع ذلك أولاً، إلى الأدلة التي قدمها "ديكارت" عن وجودنا الخاص، ووجود الله. وثانياً، عن تمييزه بين الجوهر المادي والجوهر الفكري ..^(Woolhouse, 1993, p.1). من أهم أعماله الفلسفية "قواعد لتوجيه العقل" مع نهاية 1620، "كتاب العالم" 1633، ولم ينشر وقتها بسبب أنه سمع بمحاكمة غاليليو، "مقال عن المنهج" 1637، ثم كتابه المهم "تأملات في الفلسفة الأولى" 1641، وكتاب "مبادئ الفلسفة" 1644، وكتاب "انفعالات النفس"، وأخيراً "البحث عن الحقيقة" قبيل وفاته. توفي سنة 1650.

انطلق "ديكارت" من الشك الكلي (*Universal Doubt*) تحضيراً لفلسفته، فوجد أنّ الطريق مسدودٌ بصعوبة هائلة، فالفلسفة هي محاولة بواسطة الاستدلال للوصول إلى معرفة يقينية، موثوق فيها، ولذلك يجب على الباحث في الفلسفة أن ينطلق من واقعة مسلّم بها، ومن يقين تام لبناء استدلالاته حتى تصبح يقينية؛ لكن "ديكارت" اكتشف بعد بحث بالتجربة عن بعض الحقائق، التي يعتقد أنها يقينية، والتي لا تكون محل شك، فلم يجد شيئاً منها كذلك. تبدو النظرة الأولى لموقف "ديكارت" من الشك الكلي أنّه سخيّف، فمن الممكن أن نشك في الأشياء غير المرئية وغير التجريبية، لكن كيف لشخص أن يشك في الأشياء التي يلمسها ويراهها ويسمّعها؛ أي كيف يشك في موضوعات العالم الخارجي؟ "ديكارت" كانت له إجابة شبه جاهزة عن هذا السؤال. لن نكون على يقين مطلق بوجود الأشياء التي ندركها بحواسنا ذلك لأنّه، كما يقول، "... جرّبت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتها خداعة؛ ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة" (ديكارت، 2009، ص. 72)، واحتمال أن أكون في لحظة ما غارقاً في أحلامي، ومن ثمّ لا أكون مدرّكاً للعالم الحقيقي على الإطلاق، و" يبدو لنا حينذاك، أنّنا نحس بشدّة، ونتخيل بوضوح، عدداً لا يحصى من الأشياء التي ليس لها وجود في الخارج" (ديكارت رينيه، 1975، ص 54)، لكن شك "ديكارت" لم يتوقف عند هذا الحد، فمن الممكن أن نشك في كل موضوع للمعرفة؛ فحتّى الحقائق الرياضية المتعلقة بـ "... الجسم، والشكل، والامتداد، والحركة، والمكان ما هي إلّا أوهام من أوهام نفسي" (ديكارت، 2009، ص. 84). حالة "ديكارت" هذه سرعان ما تزول عن طريق اكتشافه لحقيقة لا يمكن أن توضع موضع تساؤل، وهي أنّه كائن موجود. ولا يستطيع أن يشك في هذه القضية، لأنّ الشك في ذاته يكون مستحيلًا، لو لم يكن هو في ذاته (ديكارت) موجوداً، ويقوم بفعل الشك. وهنا وصل إلى نقطة البداية الحقيقية لنظامه الفلسفي يقول "ديكارت": "... لكنني اقتنعت من قبل بأنّه لا شيء في العالم بموجود على الإطلاق (وقد أنكر من قبل أن يكون له حواس أو جسم)، فلا توجد سماء، ولا أرض، ولا نفوس، ولا أجسام، وإذن فهل اقتنعت بأنّي لست موجوداً كذلك؟ هيئات!... وينبغي عليّ أن أنتهي إلى نتيجة، وأن أخلص إلى أنّ هذه القضية "أنا كائن وأنا موجود"، قضية صحيحة بالضرورة". (ديكارت، 2009، ص. 95) إلى هنا اكتشف ديكارت وجوده.

ما حقيقة وجود الذات؟ يجيب "ديكارت" بأنّه لا يملك أي صفة التي هي من طبيعة الجسم، وحتّى بعض صفات النفس، مثل قوة التغذي، و المشي، أو حتّى الإحساس... إذا صحّ أن لا جسم لي فلا قوة لي على المشي، أو على التغذي، ولا إحساس بدون جسم؛ أمّا صفة التفكير فهي التي تخصني، ليصل إلى "أنا موجود ما دمت أفكر؛ فقد يحصل أنّي متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً" (ديكارت، 2009، ص. 98-99)، وهذه ما تعرف بقضية الكوجيتو "أنا أفكر إذن أنا موجود" (*Cogito Ergo Sum*). أمّا فائدة هذه المعرفة فهي القاعدة الصلبة، وليست الأرض الرخوة، أو الرمل المتحرك، الذي يقيم عليها البناء الفلسفي، " طبيعة هذه المعرفة هي حجر الأساس لنظام ديكارت" (Calkins، 1907، p.25) لكن لماذا يبحث "ديكارت" عن قضية واضحة كأساس لفلسفته؟ إنّ غرض "ديكارت" " أن ينظم في فلسفته - حسب تعبير عثمان أمين- لحمة محبوكة من الاستدلالات، بحيث أنّه متى تمّ اكتساب حقيقة أولى لزمّت عنها سلسلة الحقائق الأخرى جميعاً" (ديكارت، سنة 255). ما ترتب لاحقاً عن اكتشاف الذات المفكرة هو إثباته لوجود الله، ككائنٍ كاملٍ لامتناهٍ، وكضامنٍ لجميع معارفه، إذ هو جوهرٌ، لو جهلناه، فلن نستطيع أن نعرف شيئاً آخر معرفة يقينية، وأخيراً اكتشافه للعالم الخارجي.

مفهوم الجوهر وأنواعه:

يعطي ديكارت مفهومين مختلفين للجوهر في أعماله، الأول منه ضمّنه كتابه " مبادئ الفلسفة الأولى"، والتعريف الثاني ذكره في ردوده عن الاعتراضات المتعلقة بعمله " التأملات في الفلسفة الأولى" (Woolhouse، 1993، p.15) من طرف بعض الفلاسفة في عصره.

ناقش مسألة الجوهر في كتابه "مبادئ الفلسفة"، الذي أراد من خلاله تفويض أسس الفلسفة المدرسية، وفق ما ذكر ذلك في مقدمة كتاب المبادئ، ومن ورائها الفلسفة الأرسطية، وكذا "التأملات". يعرف الجوهر في "المبادئ" بقوله: "حين نتصور الجوهر، إنّما نتصوره موجوداً، غير مفتقر إلاً إلى ذاته في وجوده" (ديكارت، 1975، ص. 88)؛ ومنه فالكائن الذي يصدق عليه هذا التعريف، يجب أن يكون مستقلاً كل الاستقلال عن جميع الأشياء الأخرى أولاً، ومكتفياً بنفسه ثانياً، ومحتوياً على جميع كميّاته و أحواله ثالثاً. وأخيراً، ذلك الكائن الذي لا يكون معتمداً على، أو متعلقاً بأي شيء سوى نفسه، ومنه فأى ارتباط للجوهر بأي شيء خارج عنه، منافٍ لتعريف الجوهر" (ديكارت، 1975، ص. 89)، لكن عندما يقول ديكارت عن الجوهر أنه غير مفتقر إلاً إلى ذاته في وجوده، فإنّه يحصر مفهوم الجوهر في موجود واحد فقط، وهو الله، فجميع الموجودات الأخرى مفتقرة إلى كائنٍ كامل، أو أحياناً إلى جوهر أقل، وهكذا، فهذا التعريف الوارد في المبادئ لا يصدق في جوهره إلاً على الله. انتبه "ديكارت" إلى هذا حين قال "الأصح أن يُقال أنّه لا أحد سوى الله، يكون هذا شأنه، ذلك أن ما من شيء مخلوق يستطيع أن يوجد لحظة واحدة، إلاً و قدرة الله تسنده وتحفظه" (ديكارت، 1975، ص. 89) لكنه فيما بعد، ربّما يجاري المدرسيين، رغم نقده لهم، في القول إن "لفظ الجوهر لا يدلُّ على معنى واحد، قياساً على الله والمخلوقات؛ أي أن ليس له معنى يمكن تصوره تصوراً متميّزاً، ويكون دالاً عليه وعليها دلالة واحدة، ولكن من حيث أن بعض الأشياء المخلوقة لا يمكن بطبيعتها أن توجد إلاً بواسطة البعض الآخر، فإننا نميّزها من الأشياء التي لا تحتاج إلاً إلى عون عادي من الله" (ديكارت، 1975، ص. 89)، "فالأشياء" التي تفهم أنّها جواهر هي التي يمكن أن توجد دون اعتماد على أي شيء مخلوق، وفي مكان آخر، لا يذكر ديكارت مسألة الاعتماد على الله، ويتحدث عن "ماله القدرة على الوجود المستقل"، وأيضاً يذكر "ما هو موجود بذاته"، أو "ما هو متقوم بذاته" (p.157، 1985، cms) كان هذا ما أورده في المبادئ أو في التأملات.

أمّا في ردوده على الاعتراضات الثانية من التأملات (p.114، 1985، cms)، وفي معرض حديثه عن حجج للبرهنة على وجود الله، و التمييز بين النفس والجسم، و الموضوعية على شكل الطريقة الهندسية، و التي اشتهر بها اسبينوزا لاحقاً في عمل "الأخلاق، فيعرف الجوهر على أنّه "ما يملك صفات، أو كميّات، أو خصائص". لفظ الجوهر - حسب - ينطبق على كل شيء يمكن أن ندركه من خلال أي كميّة، أو صفة، أو عرض"، أو هو "كل شيء يمكن أن ندركه بصورة فورية، مقوماً لشيء ما كموضوع"، أو "أي شيء الذي ندرك بواسطته أنه موجود"، أو "الموضوع الذي توجد فيه وتنشأ منه الأفكار". هذا التصور للجوهر، كحامل لمختلف الكميّات، أو الأعراض، أو الأحوال، أو الخصائص، أو ما تكمن في مثل هذه الأشياء، أورده في ردوده عن الاعتراضات، وهو بالتأكيد تعريف أرسطي موروث.

يقر ديكارت إذن، بوجود مفهومين للجوهر:

- ما يوجد مستقلاً بذاته، و لا يعتمد على غيره.

- هو موضوع للمحمولات.

والسؤال المطروح، بناء على هذا التحديد، هل هذا التباين والاختلاف في التحديد يدلّ على مفهومين مختلفين عند ديكارت، أم هو تصور واحد للجوهر؟

لو تأملنا في التحديدين السابقين لمفهوم الجوهر، لوجدنا أن التحديد الثاني، وكما هو واضح من خلال تحديده السابق، يميل بشدّة إلى التصور الأرسطي للجوهر كموضوع للمحمولات، أو الأحوال، أو الصفات. من خصائص الجوهر أن الأعراض يمكن أن تُحمل عليه. لكن أرسطو يميّز بين الأعراض والجوهر، في أنّ الجواهر، وهي تختلف بطبيعة الحال عن الأعراض، قائمة بذاتها، أي لا تحتاج في وجودها إلى الأعراض، وهذا ما ردّد ديكارت في التحديد الأول من خلال أن الجواهر "مستقلة" و "قائمة بذاتها". وهذا الربط بين التحديدين ليس زيفاً أو مصادفة. يوجد إذن، أساس نصي جيّد لربط واضح

بين " الوجود المستقل" في التحديد الأول، و "الموجود كموضوع للمحمولات" في الثاني (Woolhouse، 1989، p.16). وهذه هي العلاقة بين المفهومين.

و هكذا تظهر لنا صورة الثنائية، فإجابةً عن سؤال أرسطو ما الجوهر؟ ومما تتشكل الحقيقة؟ يظهر لنا نظامان للحقيقة أو للوجود، فإما يكون بين الجوهر و الأحوال، أو الجوهر و الأعراض، أو بين الجواهر اللامادية والجواهر المادية والجسمانية، أو بين الجوهر الإلهي الخالق و الجواهر المخلوقة، أو بين الجوهر المستقل بذاته و الجواهر المعتمدة على غيرها؛ فالجوهر الإلهي هو الذي يصدق عليه التعريف الأول، يقول ديكارت "أقصد بفكرتي عن الله، جوهرًا لا متناهياً، خالدًا، ثابتًا، قائمًا بذاته، واسع القدرة." (ديكارت، 2009، ص. 123). مصدر فكرتي هذه عنه، هو الله نفسه، فهذه الفكرة لا يمكن أن يكون قد وضعها في إلا جوهر لامتناه حقا، وهذا إثبات لوجوده. وهو مصدر وجود الجوهر المتناهي، لأن الجوهر المتناهي المخلوق، لا يمكن أن يكون مصدر ذاته، لأنه كائن ناقص، والله جوهر كامل.

أما الجواهر المخلوقة، ونقصد بها هنا الإنسان، فهي التي ينطبق عليها المفهوم الثاني، هذه الأخيرة، يميز فيها ديكارت بين النفس و الجسم، أو بالأحرى بين الجسم كجزء من الجوهر المادي، أو الحقيقة المادية، و النفس كجزء من الجوهر اللامادي، أو الحقيقة المفكرة «... لفظ الجوهر يمكن نسبته إلى النفس و الجسم بمعنى واحد» (ديكارت، 2000، ص. 89)، وما ينطبق على الجواهر اللامادية المتناهية (النفس)، ينطبق على الجواهر المادية المتناهية (الجسم). لكن كيف ندرك هذه الجواهر؟ هل الجوهر قابل للمعرفة والإدراك بصورة مباشرة؟ وهل ما هو قائم بذاته، هو متصور أيضا بذاته، في آن واحد، كما يقول عنه اسبينوزا لاحقا؟ إن الجوهر بنظر "ديكارت"، لا تنكشف معرفته لنا، و لا يتيسر لنا إدراكه، بصورة مباشرة، فقط نهدي إليه من "...أي صفة من صفاته نستطيع أن نلاحظه، لكن هناك صفة تقوم طبيعة وحقيقة الجوهر، و تعتمد عليها جميع الصفات الأخرى، وهي التي تدلنا على الجوهر" (ديكارت، 2009، ص. 90). و متى أدركنا صفة من الصفات قائمة، فإن نستنتج أنها صفة لجوهر، وأن هذا الجوهر موجود، ثم يضيف لاحقا، ومع أن كل صفة تكفي لتعريفنا بالجوهر، إلا أن في كل جوهر صفة تقوم طبيعة ماهيته، وتعتمد عليها جميع الصفات الأخرى؛ فالفكر مثلا، هو المقوم لطبيعة الجوهر الذي يفكر، فنحن نستطيع أن نتصور الشيء الذي يفكر بدون إرادة، أو خيال،...، لكننا لا نستطيع أن نتصور خيالا، أو إرادة، بدون شيء يفكر، فالتفكير هنا هو المقوم لطبيعة الجوهر المفكر، كما لا نستطيع أن نتصور شكلا لم يكن ممتدا، مع أننا نتصور الامتداد بدون شكل؛ أي أن الامتداد مثلا، هو المقوم لطبيعة الجوهر المادي. وهذه الثنائية الديكارتية، النفس كجوهر لا مادي، ماهيته الفكر، و الجسم كجوهر مادي، ماهيته الامتداد (ديكارت، 1975). و سيكون لهذه الثنائية أثر بالغ في نقاشات الفلسفات اللاحقة. سواء برفضها أو بوضعها كمسلمة يبني عليها النسق.

أما مسألة الاعتماد فتحتاج إلى توضيح بين أنواع الجواهر التي ذكرها ديكارت، اذا كانت الجواهر المخلوقة تعتمد فقط على الله، وتحتاج لعوده فقط لتوجد، كما ورد في المبادئ، فإن السؤال المطروح هو، ما إذا كانت هناك موجودات لا تعتمد على الله فقط، بل أيضا على جواهر مخلوقة.

في الطبعة الفرنسية الثانية لكتاب المبادئ، يقدم ديكارت لنا إجابته.. الأشياء المخلوقة نوعان.. فبعض الأشياء المخلوقة بطبيعتها، لا يمكن ان توجد بدون أشياء أخرى، بينما بعضها الآخر يحتاج لعود من الله فقط، لكي توجد. وعليه، ومن خلال هذا التمييز، يمكننا أن نسمي النوع الاول جواهر، بينما نسمي النوع الثاني اعراضا، أو خصائص، أو كيفيات لتلك الجواهر. إن خاصية الاعتماد هي التي تميز هذه المراتب الثلاثة: الله كجوهر خالق لامتناهي، لا يعتمد في وجوده إلا على ذاته، الجواهر المخلوقة تعتمد على الله، والأحوال المخلوقة، أو الكيفيات تعتمد على الجواهر المخلوقة، التي هي في الأساس محمولاتها، وهذا التمييز، يجعلنا نعتقد بنظام متعدي، ومختلف الدرجات للحقيقة وللوجود، قائم على مسألة الاعتماد، وحسب تعبير أرسطو، إن ذلك تأخذ وجودها من وجود الكائن الجوهر في اختلاف درجات الحقيقة.

يدافع ديكارت عن مراتب الحقيقة: الله، و الجواهر المخلوقة، والكيفيات أو الأحوال. بعد اعتراضات الفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبز"، عن التأمل الثالث، في هل هناك أشياء مختلفة في الحقيقة أكثر حقيقةً، أو أقل؟ وهل القصد من ذلك، أنّ الجوهر اللامتناهي أكثر حقيقةً من الجواهر المنتهية؟ وأنّ الجواهر المنتهية أكثر حقيقةً من الأحوال؟ يؤكد ديكارت، في ردوده على ذلك، على القول إن هناك ثلاث مراتب للوجود: الله، و الجواهر المخلوقة، والأحوال، ثم يضيف: "إنّه من الواضح أن نقبل حقيقة هذا الترتيب، الجوهر أكثر حقيقةً من الحال أو العرض، و الجوهر اللامتناهي أكثر حقيقةً من الجوهر المنتهية" (p119, cms.1985)، وبناءً على هذا، هذه الدرجات المختلفة من الحقيقة، و الوجود للجوهر الإلهي اللامتناهي، الذي هو أكثر حقيقةً من الجوهر اللامتناهي، وهذا الأخير أكثر حقيقةً من الجوهر المنتهية، يعود في الأخير إلى سبب "ما هو قائم بذاته"، وما هو مستقل بذاته

طريقة "الاعتماد على" هذه، تختلف بين صنف وآخر، طريقة اعتماد الأعراض والأحوال على الجواهر، ليست هي نفسها طريقة اعتماد الجواهر المخلوقة على الله. العلاقة بين الأحوال أو الأعراض و الجوهر، هي علاقة اعتماد منطقي، فمسألة الحمل عالجه أرسطو كثيراً في منطق المحمولات، فالأحوال تعتمد منطقياً على الجوهر، باعتباره الموضوع الذي توجد فيه، أو هو الحامل للكيفيات و الأحوال، بينما علاقة الجواهر المخلوقة والله فهي علاقة عليّة، لأنّها نتيجة لله، كخالقٍ لها، (scm، 1985، p.117) أي أنّ وجودها مرتبط بالله، كعلّة أولى من خلال الخلق، لكن هناك التفتاة من ديكارت في الردود على الاعتراضات الثانية، إلى أنّ طريقة اعتماد الأحوال و الكيفيات على الجواهر المخلوقة بالله، هي نفسها طريقة اعتماد الجواهر المخلوقة على الله، لأنّها من خلق الله جميعاً.

يُطرح انشغال آخر في هذا المجال، و يتعلق بحاجة الأحوال و الأعراض إلى الجوهر، وفي الوقت ذاته حاجة الجوهر إلى الأحوال و الأعراض، لكن هل يمكن أن ندرك جوهرًا بدون أحوال، و الذي قلنا أنّها تختلف عنه؟ يجب أن نشير إلى مسألة الوجود ومسألة المعرفة، حتّى ندرك مدى العلاقة بين الجوهر و العرض. من حيث الوجود، لا يمكننا أن نتصوّر وجود صفاتٍ، أو أعراض بدون حامل لها، وهو الجوهر، لكن بالمقابل لا يتأسس وجود الجوهر على الأعراض، وذلك وفق التعريف "ما هو قائم بذاته"، بينما بالمقابل، لا نستطيع إدراك و معرفة الجوهر، بصورة مباشرة، إلّا من خلال الصّفة الرئيسية للجوهر.

عندما نتأمل جيداً طبيعة الجواهر المخلوقة، كما ورد في أعماله الرئيسية، نجد أنّها لا تخرج عن ذلك التمييز المشهور بين الجوهر المفكر و الجوهر الممتد، كما أشرنا سابقاً. يحدّد ديكارت ثلاثة مفاهيم أساسية على الترتيب: المفاهيم التي نملكها عن النفس، كجوهر مفكر أولاً، والمفاهيم التي نملكها عن الجسم، كجوهر ممتد ثانياً، وأخيراً المفاهيم التي نملكها عن الوحدة بين النفس و الجسم. في رسالة مؤرخة في 28 جوان 1643 إلى الأميرة إليزابيث Princess Elizabeth of Bohemia (1618-1680)، و بعد رسالة سابقة شعر فيها بعدم إيفاء حق الإجابة عن سؤال يخص القضية ذاتها، كتب ديكارت: "...أما العناصر الأساسية التي أغفلنا عن ذكرها فهي تبدو لي كالآتي: أولاً وقبل كل شيء، قد ميّزت بين ثلاثة أنواع من الأفكار و المفاهيم الأولية، حيث يُعرف كل واحد منها بصفة خاصة، وليس عن طريق مقارنتها ببعضها ببعض؛ المفاهيم التي أملكها عن النفس، و المفاهيم التي أملكها عن الجسم، والمفاهيم التي أملكها عن الوحدة بين النفس و الجسم، بعد هذا التمييز، كان عليّ أن أفسّر الفرق القائم بين هذه الأنواع الثلاثة في المفهوم، وبين عمليات النفس التي تمكننا منه.."

1- الجوهر المفكر:

يُعدّ اليقين الأولي الذي اكتشفه ديكارت، الذي هو أساس اليقينيات الديكارتية الأخرى، وقاعدة فلسفته، بعد مرحلة الشك، ذكره في كل أعماله تقريباً، شكّه انتهى في الأخير، إلى قبول حقيقة واضحة بذاتها، وهي أنّه كائنٌ موجودٌ مادام لا يستطيع أن يشك في هذه القضية، لأنّ الشك في ذاته يكون مستحيلًا، لو لم يكن هو في ذاته (ديكارت) موجوداً، ويقوم

بفعل الشك. وأساس هذا الوجود هو التفكير، أنا موجود ما دمت أفكر؛ فقد يحصل أنّي متى انقطعت عن التفكير تماماً انقطعت عن الوجود بتاتاً (ديكارت، 2009)، وهذا هو الجوهر المفكر، الذي تُعدّ معرفته أيسر، وأكثر يقيناً، وأكثر تميزاً، من معرفة الجسم، نصوص كثيرة تعبر عن الجوهر المفكر "ما أنا على وجه التدقيق إلا شيء مفكر؛ أي ذهن أو روح، أو فكر، أو عقل،" (ديكارت، 2009، ص. 100)، الصفة الرئيسية لهذا الجوهر أو النفس هي التفكير، لأنّ الفكر هو الصفة التي تخصّ الإنسان، فالشيء المفكر هو شيء يشك، ويفهم، ويتصور، ويثبت، وينفي، ويريد، ولا يريد، ويتخيّل، ويحس أيضاً.

2- الجوهر الممتد:

هو ثاني أهم عنصر في مخطط ديكارت الفلسفي الميتافيزيقي، فالصفة الأساسية والأولية للجسم أو المادة، هو كونه ممتداً في أبعاده الثلاثة، الطول، العرض، والعمق، لكن الامتداد هنا ليس مجرد مظهر للجوهر المادي فقط، بل جوهر (Woolhouse, 1993, p.79). يقول ديكارت في كتابه المبادئ، القسم الثاني: "طبيعة الجسم أو المادة لا يكمن في كونه شيئاً صلباً، أو خفيفاً أو ذا لون، أو ما يؤثر على الحواس بأي طريقة، ولكنّه ببساطة في كونه شيئاً ما ممتداً في الطول، والعرض، والعمق. الوزن، واللون، ومختلف الكيفيات الأخرى، التي ندركها بالحواس، يمكن الاستغناء عنها، بينما تبقى المادة كما هي، وهذا يعني أن طبيعة المادة لا تعتمد على أية كيفية من الكيفيات السابقة ... ، ويقول في "القواعد": "ونقصد بالامتداد ما له طول، وعرض، وعمق". هنا يميّز ديكارت بين نوعين من الكيفيات في الجسم، كيفيات أولية موضوعية موجودة في الجسم، وهي على وجه التحديد الامتداد، وأخرى ثانوية ترتبط بالذات، كاللون، والذوق، والحرارة، ولا شيء منها موجود في الموضوعات الخارجية. ويردّ هذه الأخيرة في الجسم إلى كيفية الامتداد. ولعلّ مثاله المشهور في التأمل الثاني "شمعة العسل"، يبيّن لنا أنّ ما يبقى حقاً في شمعة العسل بعد قربها من النار واحتراقها، هو شيء ممتد لئّن متحرك فقط. وهذه خاصية الجوهر الممتد الرئيسية.

3- العلاقة بين الجوهرين:

العلاقة بين ما هو مادّي وما هو روحي وفكري، أو مشكلة التفاعل بينهما، مشكلة قديمة، أغلب المذاهب الفلسفية أقرّت بوجود المبدئين، أو الجوهرين، حتى وإن ألغى بعضهم طرفاً على حساب طرف آخر. هذه الثنائية بين الجوهرين، وخاصة بين النفس والجسم في الإنسان، كانت من أهم ما ناقشه ديكارت، وقد أثّر حولها التساؤلات؛ لأنّ ديكارت قد ميّز بين جوهرين، كما أشرنا، فيما يعرف بالتمييز الواقعي، الذي ذكره في كتاب المبادئ، الجزء الأول، وفصل بينهما من خلال مجموعة أدلة، بعض هذه الأدلة أوردها فلاسفة قبله، مثل القديس أوغسطين، وابن سينا، وبعضها الآخر كان أصيلاً فيها، ويمكننا الإشارة إلى بعضها، وبإيجاز في الاتي: أولاً، في كون حقيقة وجودنا ترتبط بالنفس لا بالجسم، فنحن نعرف بوضوح أنّنا لا نحتاج، لكي نكون موجودين، إلى أي شيء آخر يعزى إلى الجسم، وإنّما وجودنا بفكرنا وحده كما ذكر في المبادئ، وأيضاً يذهب في المقال عن المنهج، إلى أنّه حتّى ولو لم يكن الجسم موجوداً البتّة، لكانت النفس موجودة، كما هي بتمامها. ثانياً، تتأسس حجته هنا على مسألة القابلية للقسمّة، فكل ما هو ممتد يقبل القسمّة إلى أجزاء، بينما النفس فهي جوهر بسيط، ثالثاً، تقوم هذه الحجّة على أساس أن النفس تُدرك بدون جسم بعض المعقولات، عن طريق النور الطبيعي فقط، وأخيراً، لديه حجة إبستمولوجية تتفق ونظام البرهنة الذي دأب عليه في اثبات جميع قضايا الميتافيزيقية، ذكره ديكارت في التأمل السادس، وهي قائمة على التمييز الفكري. (طحطاح، 2018)، لكن هذا التمييز والفصل بين الجوهرين، لم يمنع ديكارت بقبول فكرة الوحدة بين الجوهرين، والتفاعل بينهما، وهنا مثار التساؤل والتشكيك.

في واقع الحال لم يبحث ديكارت عن مبدأ ميتافيزيقي ليفسر به اتّحاد النفس بالجسم، وإنّما سلّم به باعتباره واقعة من الوقائع "إذا أردنا أن نعرف معنى اتحاد النفس بالبدن، فعلينا أن نعيش، ونتخلّى عن كل تأمل فلسفي، وعلى هذا الأساس

نهم عباره ديكارت "فالناس الذين لم يكن لديهم حظ من التفلسف إطلاقاً، ولم يستعملوا سوى حواسهم، لديهم بدن شك، معرفة أن النفس تُحرك الجسم، وأن الجسم يؤثر في النفس... كل شخص يشعر بأنه فرد واحد، وأنّ كلاً من جسمه ونفسه مرتبطان بالطبيعة، وأنّ التفكير يمكن أن يحرك الجسم، ويحس الأشياء التي تحدث له (csm، 1985، pp.227_226)

يحدّد ديكارت بعد هذا الموطن الدقيق لهذه العلاقة بين النفس والجسم، في عمله "انفعالات النفس"، وعلى الرغم، كما يقول أنّ النفس ترتبط بالجسم ككل، إلّا أنّ فيه جزءاً تمارس فيه وظيفتها، أكثر ممّا تفعل مع بقية الأجزاء. يرفض أن يكون هذا الجزء هو القلب، كما يُعتقد غالباً، ويرفض أيضاً أن يكون الدماغ بأكمله، بل يقول: "...ولكنّ حين تفحصت الأمر بعناية، بدا لي أنّي عرفت بأن الجزء من الجسم، الذي تمارس النفس فيه وظائفها مباشرة... (هو) القسم الداخلي من الدماغ، وهي غدة معيّنة صغيرة جداً (الغدة الصنوبرية)، تقع في وسط مادة هذا الجزء. ومعلّقة فوق مجرى، الذي تتصل بواسطته أرواح التجايف، كما يعتقد." (ديكارت، 1993، ص. 30)، وفي هذه الغدة تمارس النفس منها جميع وظائفها، وذكر ديكارت هذا الأمر أيضاً في كتاب "المبادئ"، القسم الرابع منه، "...ونستطيع أن نثبت بسهولة، أنّ النفس لا تحسّ لكونها في كل عضو من أعضاء الجسم، بل لكونها فقط في الدماغ، حيث تجلب إليها الأعصاب بحركاتها مختلف تأثيرات الأشياء الخارجية، التي تلامس أجزاء الجسم، حيث توجد تلك الأعصاب" (ديكارت، 2008، ص. 339) وهو الأمر نفسه، ذكره أيضاً في نهاية التأملات، الذي يقول فيه "والأحظ أيضاً، أنّ النفس لا تتلقّى مباشرة الأثر، الذي يأتي من جميع أجزاء الجسم، بل تتلقاه من المخ فحسب، وربّما من جزء من أصغر أجزائه؛ أي الجزء الذي تعمل فيه الملكة التي يسمونها (الحس المشترك).. كما يؤكد هذا بما ذكره في كتاب المبادئ، الجزء الرابع، ومنها تفسير ديكارت، سواء في انفعالات النفس، أو في مقال عن الإنسان هذه الوحدة، وكيف يؤثر الجسم على النفس من خلال الاحساسات، وكيف تؤثر النفس على الجسم وتحركه من خلال الإرادة.

أثار هذا التفسير عديد الاعتراضات، وربما كانت هذه المشكلة حافزاً لبعض الديكارتيين لكي يتجاوزوا هذا التفسير، و ينصب الاعتراض الأبرز على كيف لجوهر مفكر غير ممتد أن يكون علّة الحركة في الجوهر الممتد غير المفكر، وكيف لجوهر ممتد غير مفكر أن يكون علّة الاحساسات في الجوهر المفكر غير الممتد. الخصائص المتنوعة لهذين النوعين من الجواهر يجعلهما من المستحيل أن يتفاعلا (متى، 2000، ص. 88) وهذا ما طرحه بيير غاسندي، و اسبينوزا، و حتى الأميرة إليزابيث وغيرهم، وهذا موضوع يرتبط فيه الفصل بين الجوهريين، أي النفس و الجسم، بموضوع التفاعل بين الجوهريين، أو مشكلة الوحدة بين النفس و الجسم، في فلسفة ديكارت.

ما يمكن أن نستنتجه من خلال هذا الطرح لمشكلة الجوهر لدي ديكارت الآتي:

- من خلال مناقشة فكرة الجوهر عند ديكارت، مؤسس الفلسفة الحديثة، تراءى لنا ذلك الامتداد الأرسطي و الوسيط لفكرة الجوهر عنده، وهو امتداد يثبت لنا مسألة التواصل للفكرة، بين العصر اليوناني و العصر الحديث مروراً بالعصر الوسيط، سواءً على مستوى المصطلح أو المفهوم، لأنّ مفهوم الجوهر في حدّ ذاته، يعدّ أحد المفاهيم الرئيسية التي انتظم بها المجالين الفلسفي و العلمي لدى اليونانيين على السواء، و الذي بقي بمثابة الإطار أو الرحم الضروري الذي نمت فيه الفلسفات إلى ما بعد عصر النهضة.

- في تحديده لمفهوم الجوهر، كان ديكارت وفيّاً لثقافة عصره من جهة انطباق الفكرة على مفهوم الله "ما هو قائم بذاته، ولا يحتاج في وجوده إلى غيره"، و كان وفيّاً للتقليد الأرسطي الذي دأبت عليه فلسفة العصور الوسطى، كحامل للكيفيات، أو الأعراض، أو الصفات.

- ما أثاره ديكارت كإشكالية، هو تقديمه لتعريفين لمفهوم الجوهر، أحدهما ينطبق إلا على الله، والتعريف الثاني يستند من خلاله إلى الإقرار بجواهر مختلفة، أما مناقشته لثنائية الجوهر بين النفس و البدن، و الفصل بينهما على أساس أن كل جوهر مستقل بذاته، و لكنّه عندما أخذ بموقف الرجل العادي، مقابل رأي الفلسفة، أقرّ بالعلاقة و التفاعل بين الجوهرين، وعلى أساس علوم عصره، فسّر تلك الوحدة بين الجوهرين.
- هذا التفسير، وبقدر الانتقادات التي وُجّهت له، و للموقف ككل، ظلّ الدافع الخصب لفلاسفة ما بعد ديكارت، لمعالجة هذه الإشكالية، وبناء أنساق على أساس تلك الحلول، كوحدة الوجود و وحدة الجوهر عند اسبينوزا، أو تعدد الجواهر و المونادولوجيا مع لايبنتز.

قائمة المراجع:

1. العظم، ج. (1979). دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة (ط.3). دار العودة.
2. ديكارت، ر. (1993). انفعالات النفس (ج. زيناني، مترجم). دارالمنتخب العربي.
3. ديكارت، ر. (2009). التأملات في الفلسفة الأولى (ع. أمين، مترجم)، التأمل الثاني. دارالمركز القومي للترجمة.
4. ديكارت، ر. (2008). حديث الطريقة (ع. لشارني، مترجم)، مركز دراسات الوحدة العربية.
5. ديكارت، ر. (1975). مبادئ الفلسفة (ع. أمين، مترجم). دار الثقافة للنشر والتوزيع.
6. ديكارت، ر. (2000). مقال عن المنهج، القسم الأول (م. الخضير، مترجم). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. طحطاح، م. (2018). الثنائية الديكارتية: التمييز بين النفس والجسم. مجلة دراسات و أبحاث، (33)، جامعة الجلفة.
8. متى، ك. (2000). الفلسفة الحديثة عرض نقدي. دار الكتاب الجديد المتحدة.
9. Calkins, M. W. (1907). The persistent problems of philosophy. The Macmillan Company.
10. Descartes, R. (1985). The philosophical writings of Descartes (Vol. 2). (J. Cottingham, R. Stoothoff, & D. Murdoch, Trans.). Cambridge University Press.
11. Descartes, R. (1985). The philosophical writings of Descartes (Vol. 3). (J. Cottingham, R. Stoothoff, & D. Murdoch, Trans.). Cambridge University Press.
12. Woolhouse, R. S. (1993). The concept of substance in the seventeenth century metaphysics: Descartes, Spinoza, Leibniz. Routledge.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

طحطاح مبروك، (2025) الطبيعة الإشكالية لمفهوم الجوهر في فلسفة ديكارت، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، المجلد 18 (العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 65-73.